

الخطابة عند العرب

﴿محاضرة﴾

القاهـا السيد

محمـد الحـضـر حـسـين

في نادي جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة

مساء الاربعاء • ذى القعدة سنة ١٣٤٦

القاهرة

١٣٤٦

obeykandi.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أحمد لله رب العالمين * وصلى الله على خاتم النبيين ، وعلى
آله وصحبه وسلم
أيها السادة ،

أملنا وثيق في أن نهض هذه الجمعية وتضرب بجناحيها
في اقبال ونجاح . وما علينا إلا أن نبتغي بها الاسباب التي تصعد
بالجماعات الى أن تكون عزيزة الجانب ثابتة الاقدام

ومن خير هذه الاسباب وأقربها الى الغاية المنشودة صرْفنا
العناية في اتقان صناعة البيان . ومن أجل هذا اخترتُ أن ألقى
كلمة في الخطابة عند العرب ، فقد كانت مظهراً من مظاهر
الابداع وعاملاً من عوامل الإصلاح

ولا بأس في أن أفتتح هذه الكلمة بالحديث عن حقيقة
الخطابة في لسان الفلسفة وإن كانت وجهتنا أدبية ، فإن للوجهة
الأدبية في هذا الموضوع صلة بالوجهة الفلسفية

﴿ ما هي الخطابة ؟ ﴾

يذكر المنطقة الخطابة فيقولون : هذا القياس من قبيل الخطابة ، وليس ببرهان ، والخطابة على هذا القصد ضرب من ضروب القياس ، وهي القياس المؤلف من أقوال مظنونة أو مقبولة ، والأقوال المظنونة ما يؤخذ فيها بالمحتمل الراجح ، والأقوال المقبولة ما تُتلقى ممن يُعتقد صدقه وسداد رأيه

ومثال الخطابة المؤلفة من أقوال مظنونة أن تشير الى امة غربية أو شرقية وتقول : هذه الامة تساس بارادتها ، لان لها مجلساً نيابياً ينظر في شئونها ، وهذا الاستدلال يرجع الى الخطابة القائمة على أقوال مظنونة ، اذ الشأن في الامم ذات المجالس النيابية أن تكون مسوسة بارادتها ، ولا يبلغ هذا الاستدلال أن يكون قاطعاً اذ من الجائز ، ولو على بعد ، أن تجول عند انتخاب الاعضاء ربح ضاغطة ، فلا يجري الانتخاب على وجهه الصحيح

ومثال الخطابة المؤلفة من أقوال مقبولة أن تقول لمن يتخبطه الغضب حين يُنقد قوله : لا تستنكف من أن بُرد عليك رأيك ، فقد قال الخليفة المأمون : إن العلم على المناقشة أثبت منه على المناعبة . أو تقول لمن يبلى بسلطة جاهل : لا تطع من يأمرك بغير

هدى ، فقد قل أبو بكر الصديق رضى الله عنه : فإذا عصبتُ الله
ورسوله فلا طاعة لي عليكم
ومقابل الخطابة أربعة فنون :

(أحدها) البرهان ، وهو القياس المؤلف من أقوال يقينية ،
كأن تقول : تونس مملكة غير مستقلة ، لانه يقيم في ثكناتها
ويقبض على زمام أمرها رجال فرنسيون . وإنما كان هذا القياس
برهانا لان العقل لا يستطيع أن يتصور لامة استقلالاً الا أن
يكون لرجالها رأي النافذ والكلمة العليا

(ثانيها) الجدل ، وهو القياس المؤلف من أقوال مشهورة
مسألة بين الناس ؛ أو أقوال يسلمها المخاطب ولو لم تكن في نفسها
صادقة . ومثال ما كان مؤلفاً من أقوال مشهورة مسلة بين الناس
أن تشير الى قوانين أو محاكم ترفع الاقوياء على المستضعفين درجة أو
درجات ، وتقول : هذه القوانين قبيحة الوضع ، أو هذه المحاكم
قبيحة الهيئة ، لانها لا تقوم على أساس المساواة بين الناس . وهذا
الاستدلال يرجع الى أقوال عرفها الناس وتعاقدوا على صحتها ،
وهي أن عدم المساواة بين الناس ظلم ، وأن قبح الظلم شديد

ومثال القياس المؤلف من أقوال يسلمها المخاطب ولم تكن في
نفسها صادقة أن نحاور من لا يعرف الحق والباطل ، أو الضار

والنافع ، وإنما يعرف الجديد والقديم ، فتقول له : الخمر غير لائقة ،
 لأن أحدث قانون وضع لها في البلاد الغربية يمنع من تناولها .
 وهذا القياس يعتمد على قول يسلمه مخاطبك الذي يدور مع
 الجديد أينما دار ، وهو أن كل شيء يوضع له قانون جديد يمنع
 من تناوله فهو غير لائق . ولو قلت : الخمر غير لائقة لأن علماء
 الاجتماع بأمريكا قرروا أنها قذى في عين المدنية وعثرة في سبيل
 العمران ، كان قياسك هذا من قبيل الخطابة

(ثالثها) الشعر ، وهو القياس المؤلف من أقوال خيالية ،
 ومثال هذا أن يزین لك الرجل الخمول والقعود عن الناس في ناحية ،
 فيقول : الخمول أهنا حياة وأقرب الى السلامة من الظهور ، فان
 عواصف الرياح تحطم الاشجار الشائخة برءوسها ، ولا تمس الشجر
 القريب من الارض بسوء . وإنما كان هذا القياس شعراً لأنه لم
 يزد على أن خيل اليك الظاهر بالعمل مع الجماعة في صورة
 ما تصرعه الرياح العاصفة حتى تأخذك روعة وتسل يدك من
 يدهم نفوراً وفزعاً . ويمكنك أن تعارض هذا الخيال بخيال مثله
 فتقول : الظهور خير من الخمول ، فان الشعالب تدوس النباتات
 القريب من الارض بأرجلها ، ولا تصل الى الاشجار الشائخة الا
 أن ترمقها باعينها .

وقد يجتمع في القياس الواحد الشعر والخطابة ، ومثال هذا أن تقول : علموا البنات تحت ظلال الصيانة والحياء ، فانهن من البنين بمنزلة أعجاز القصيدة من صدورها ولا يحسن في القصيدة الواحدة أن تكون صدورها محكمة ، وأعجازها ضعيفة متخاذلة . وهذا القياس من جهة ما فيه من تخييل شعر ، ومن جهة ما يضعه في النفس من اقتناع خطابة . وهذا النوع من الاستدلال هو ما يسميه الباحثون في فلسفة الأدب بالتمثيل الخطابي

(رابعها) السفسطة ، وهي القياس المؤلف من أقوال لم تستوف شرائط الانتاج ، ومثاله أن يقول من في قلبه مرض : إن نبذ آداب الدين تطوّر من تطورات العصر ، وتطورات العصر لا تأتي مقاومتها بشيء . وانما كان هذا القياس من نوع السفسطة لان التطورات التي لا تقاوم انما هي التطورات الناشئة عن سنن كونية ثابتة ، أو التطورات التي يأتيها الناس برجاجة عقل وسلامة ذوق ، أما التطورات الحادثة عن اهواء أو جهالة فهي التي تجيء الشرائع وتؤلف الكتب وتلقى الخطب لمحاربتها وتظهر الارض من أرجاسها ، وإن لبسها الرؤساء ومن في الارض جميعا

ولعل بعض السادة الحاضرين يلاحظون انا سقنا أمثلة

(٨)

الخطابة وما يقابلها من فنون القياس على غير الطريقة المعروفة في درس القوانين المنطقية ، فلم تقل مثلاً : تونس مملكة شرقية يقبض على زمامها رجال فرنسيون ، وكل مملكة شرقية يقبض على زمامها رجال فرنسيون فهي غير مستقلة ، النتيجة تونس غير مستقلة

وعذرنا فيما سلكنا أن هذه المقاييس لا ترد في المحادثات التي تراعى فيها قوانين البلاغة الا محذوفة احدى المقدمتين أو النتيجة أي محذوفة ما تدل عليه قوة الكلام تفصيلاً من وصفي التكرار والاطالة لغير جدوى

ويراد من الخطابة القوة الصانعة للاقوال المقنعة . وعلى هذه البابة رسمها ارسطو فقال : هي قوة تشكف الاقناع الممكن في كل واحد من الاشياء المفردة

ومعنى هذا ان الخطابة قوة يطبق صاحبها اقناع المخاطبين في كل شيء يدعى أنه غرض صحيح ، والاقناع تقوية الظن ، وهو ما تعتمد عليه صناعة الخطابة

وانما وصف الاقناع بالامكان فقال «تشكف الاقناع الممكن» لان شأن هذه الصناعة اعداد النفوس لعمل الاقناع وان لم تبلغ غايتها القصوى . وكذلك الشأن في سائر الصناعات فانها تعتمد

النفس لعمل خاص . ثم ان الناس يكونون فيها على درجات متفاوتة متفاضلة

وانما قال : في كل واحد من الاشياء المفردة لان الخطابة تناول كل العلوم والفنون ، ويسوغ لها أن تدخل في كل شيء صغيراً كان أو كبيراً ، معقولا كان أو محسوساً . ومن هنا قال الباحثون في شؤونها : يلزم الخطيب أن يكون ملماً بالعلوم والفنون ما استطاع ، وأن يسعى دائماً الى أن يزداد في كل يوم علماً

أما الخطابة في لسان الادباء والبلغاء فهي القاء الكلام المنشور ، سجعاً أو مرسل ، لاستمالة السامعين الى رأي أو ترغيبهم في عمل ، وهذا ما يريدونه عند ما يذكرون الخطابة ، ويقولون : فلان يقوم على الخطابة أكثر مما يقوم على الكتابة

والخطابة عند هؤلاء وان كانت تعتمد على الاقوال المظنونة أو المقبولة ، قد يدخل فيها ما يسمى عند المناطقة برهاناً ، قال صاحب المناهج الادبية : والاقوال الصادقة يقيناً لا تقع في الخطابة من حيث انها خطابة ، فان ألم بها الخطيب فقد عدل بالخطابة عن أصلها . وربما أتى الخطيب على أقوال مموهة أي ذات جمل تشبه ما يكون صادقاً وليست في نفسها صادقة ، أو ذات هيئة تشبه

ما يكون صحيحاً وليست في نفسها بصحيحة ، قل مالك بن دينار:
رأيت الحجاج يتكلم على منبره ويدكر حسن صنيعه لاهل العراق
وسوء صنيعهم له ، حتى انه ليخيّل الي انه صادق مظلوم

✽ شرف الخطابة ✽

تشرف العلوم والصنائع بمقدار ما تشرف غاياتها . وللخطابة
غاية ذات شأن خطير ، وهي ارشاد الناس الى الحقائق وتشويقهم
الى ما ينفعهم في هذه الحياة وفي تلك الحياة . والخطابة معدودة
في وسائل السيادة والزعامة ، سمع الامام علي بن أبي طالب زياداً
يخطب - وكان زياد لا يدعى يومئذ لابى سفيان - فقال : لو كان
هذا الفتى قرشياً لساق العرب بعصاه . وكانوا يعدونها شرطاً
للامارة ، ألا ترون الى عبد الله بن زياد - وكان خطيباً على لكنة
في لسانه - كيف يقول : نعم الشيء الامارة لولا قعقة البرد
والتشرف للخطب

وقد غني الاسلام بالخطابة اذ شرعها في أيام الجمع والاعياد
ومواسم الحج ، شرع الخطابة وما شرعها الا ليتولاها ذو نباهة
وعلم وبلاغة

يتولاها ذو نباهة ليكون بصيراً بما يطرأ على نظام الجماعة من
خلل ، وبما ينصبه اعداؤها من مكاييد ، وبما يبيتها منافقوها من تضليل

يتولاها ذو علم حتى يفرق بين المعروف والمنكر ، ويميز
الالهام من الحقائق ، ويكون ارشاده مملوءاً بالمواعظ الحسنة
والحكم السامية

يتولاها ذو بلاغة ليختار من أساليب البيان ما تألفه
الاذواق وتفتح له الصدور . وكذلك كانت الخطابة يوم كانت
اللغة في حياتها الزاهرة وكان الخطباء كما ولدتهم امهاتهم أحرارا
ففي الخطابة شرف عظيم ، وشرفها في أن يكون القائم عليها
نبيها عالماً بليغاً

قد يبلغ الخطيب بحذقه في فنون البيان أن يريك الباطل في
صورة الحق ، ويخيل اليك الشقاء سعادة . وهذا لا يزري بقدر
الخطابة ، وان هي الا ككثير من وسائل الخير التي قد يذهب بها
بعض الناس في غير مذهبها ، ويضعها فيما ليس من شأنها ، ومثلها
في هذا مثل السيف تهزه يد العدل لتضرب به الباطل مرة ،
ويهزه الباطل ليمطو به على الحق مرة اخرى

﴿ ما ذا تفعل الخطابة ؟ ﴾

الخطيب البارع يقف في الجند المتباطيء ويصف له ما يناله
الابطال من عزة يوم يعيشون ، أو سعادة يوم يموتون ، فينقلب
التردد عزيمة صارما ، والاحجام هجوما رائعا

الخطيب البارع يقف في الجماعة الخاملة فيهرز قلوبها هزا ، فاذا
هي ناهضة من خولها ، عاملة لاعلاء ذكرها ، مقتحمة كل عقبة
تقوم في طريقها

الخطيب البارع يقف بين قوم نشأوا في بيئة مغبرة جهلا
وعماية ، أو تلقتهم دعاة الغواية قبل أن تألف الحق بصائرهم ،
ويشتد في العلم ساعدهم ؛ فلا يبرح يعرض عليهم سبل الهداية
في استوائها وتقائها ، فاذا هم الرجال المصلحون أو الزعماء الناصحون

الخطيب البارع يقف بين طائفتين استعرت بينهما نار
العداوة ، ولم يبق بينهم وبين أن يصبح لون الأرض أحمر قانياً
الاشبر أو ذراع ، فيذكركم بعواقب التدابر وينذرهم مصارع
التقاتل ، فاذا القلوب راجعة الى ائتلافها ، والسيوف عائدة الى اغمارها

والشعراء يقرنون الخطابة بالسيف لتشابههما في اعلاء كلمة
الحق وحمل النفوس الجائحة على أن تعود الى السكينة والنظام ،
وهذا أحد الشعراء يسمى فعل السيف خطبة فيقول :

السيف أصدق من زياد خطبة في الحرب ان كانت يمينك منبرا
وآخر يسمى نفسه يوم يطعن بالسيف خطيبا فيقول :
إذا لم أكن فيكم خطيبا فاني بسيفي في يوم الوغي لخطيب

ورب كلمة يلقيها الخطيب فتنفذ في قلب السامع وينتفع بها في سيرته مادام حيا ، قال الحسن : لقد وقذنتي كلمة سمعتها من الحجاج ، فقيل له : وإن كلام الحجاج ليقذك ! فقال : نعم ، سمعته على هذه الاعواد يقول : ان امرأاً ذهبت ساعة من عمره في غير ما خلق له لحري أن تطول عليه حسرته

ولشدة وقع الخطب في نفوس الملائ ترى الرئيس المستبد ينظر الى الخطباء الاذكياء بعين عابسة ، يحذر من أن يحوموا حول سيرته ، ويقنعوا الناس بأن لا طاعة لمن يضطهد حقوقهم ولا ينصح في تدبير شئونهم

﴿ اطوار الخطابة ﴾

كان للعرب في الجاهلية خطابة أدبية ، ولكنهم كانوا يقدمون الشاعر على الخطيب من جهة أن الشعر أعلق بالاذهان وأسرع تقبلا في البلاد ، فهو أرفع صوتا بمفاخرهم ، وأكثر اذاعة لمثالب أعدائهم . وتقديم العرب للشاعر على الكاتب واقبالهم على حفظ الشعر أكثر من اقبالهم على حفظ الخطب ، كان السبب في قلة ما وصل الينا من خطبهم في الجاهلية

والخطب التي يمكننا أن نستخلص منها صورة الخطابة في

ذلك العهد ، هي هذه الخطب التي تؤثر في كتب الادب والتاريخ
 كخطب وفود العرب عند كسرى ، ثم هذه الخطب المروية في
 كتب السيرة النبوية لزعماء العرب الذين يفدون على رسول الله
 ﷺ ، مبدأ اعتناقهم للإسلام

والنظر إلى جملة هذه الخطب يجعلنا على ثقة من أن الخطابة قبل
 الاسلام كانت بهذه المنزلة المناسبة لامة هي الى البداوة أقرب
 منها الى الحضارة ولكنها كانت ذات ذكاء وحسن تصرف في فنون
 البيان

وهذه الخطب تمثل الخطابة في عهد الجاهلية سواء علينا
 أكانت ماثورة على نحو الواقع ، أم وصلت أنارة منها الى أيدي
 الرواة وأضاف اليها بعضهم جملاً تحاكيها في أسلوبها وطرز تفكيرها
 ولا وجه لانكار أن يكون في العرب قبل الاسلام خطابة
 ممتازة ، فإن الخطابة أثر انفعالات تنشأ عن حوادث تمس الجماعات ،
 ولم تخل حال العرب من حوادث على هذا النحو ، فقد كانوا
 مطبوعين على التفاخر بخصال السؤدد كلباءة الضيم وحماية الجار ،
 وعلى التفاخر بمجد الآباء والعشيرة والقبيلة ، فتشور بينهم لهذه
 الطبيعة محاورات شديدة وجدال عنيف ، وكانت الحروب بينهم
 لا تكاد تضع أوزارها ، وكانت لهم بعد هذا مجامع ينشرون

فيها مصنوعات قرأهم ليباهوا بما فيها من بلاغة وحكمة
 وإذا كان في لغة القوم بلاغة ، وفي نفوسهم طموح الى
 السيادة ، وفي ألسنتهم قوة على الجدل وشدة في المحاوراة ، وفي
 أيمانهم سيوف تتجافى عن أعمادها ، وفي بلادهم أسواق بضاعتها
 ما تبتدعه القرائح ، فما الذي يمنعهم من أن يلدوا خطباء يقرءون
 الأسماع بذكر مفاخرهم ، ويشيرون العواطف الى الدفاع عن
 أعراضهم وأنفسهم وأموالهم ؟
 طلع الاسلام بشأنه الخطير فأتسع مجال الخطابة ، واشتدت
 البواعث على ركوب منابرها ، ومن أهم هذه البواعث الدعوة
 الى هداية الاسلام ، والتحريض على الوقوف في وجه خصومه
 بمزم وطيد وإقدام حكيم . ويضاف الى هذا أن من أسباب
 اجادتها وابداعها ما بهرهم به القرآن ومنطق رسول الله ﷺ من
 بلاغة القول وروعة الاسلوب

وقد تنفس صدر الاسلام برجال سبقوا في حلبة الخطابة
 حتى أصبح الخطباء لذلك العهد يقدمون على الشعراء ويرفعون
 فوقهم درجات ، خصوصا عند ما انحط الشعر بالاسراف في المديح
 والاقذاع في الهجاء ، والاغراق في التشبيب ، وفي المديح المفرط
 ملق ، وفي الهجاء المقنع دئاة . وأقل ما يدل عليه الاسراف في

التشبيب أن صاحبه لا يرجي لمقامات الجد ولا يصلح لأن تناط
به جلائل الاعمال .

واستمرت الخطابة لأول عهد الدولة العباسية بمنزلتها التي
بلغتها في صدر الاسلام ، ومن بلغاء الخطباء في هذا العهد أبو جعفر
المنصور ، والمأمون بن الرشيد ، وجعفر بن يحيى ، وشبيب بن شيبه
ولما اختلط العرب بالعجم وأصبح الموالي يتقلدون اماره
الجيوش وولاية الاعمال ، ساءت حال الخطابة العربية فأغبر وجهها ،
وبلي ثوبها وتضاءل على المنابر صوتها . وفي هذا العهد قامت سوق
السجع واندفع يستولى على الزهر كتابة وخطابة . واذا كان في
بعض الخطب المنسوجة على منوال السجع فصاحة ورونق كخطب
ابن نباته ، فان كثيرا منها لم يكسبه السجع الا سباحة وثقلا .
والتزام السجع كما يقول ابن خلدون ناشىء من القصور عن اعطاء
الكلام حقه في مطابقة مقتضى الحال

عندما سقطت بغداد في أيدي التتار وصارت الدولة الى
أيدي امراء لا يعنيههم شأن العربية انحطت اللغة الى درك سافل
وظلت الخطابة بعد هذا مقصورة على أيام الجمع والاعياد ومواسم
الحج ، وموقوفة على مواعظ محدودة بعد ان كانت تخوض
الارشاد الى وسائل العزة ووجوه الاصلاح

وما برحت الخطابة في موقفها حتى أقبل عهد الخديوي
اسماعيل باشا واهتزت في مصر حركة اجتماعية أو سياسية ،
فنشطت الخطابة من عقالمها بل بُعثت من مرقدتها ، وتخلصت من
قيود السجع فانت من الآثار ما تقرأون اليوم وما تسمعون
﴿ أسباب ارتقاء الخطابة ﴾

إذا اعتبرنا باطوار الخطابة عند العرب نجد الخطابة أخذت
ترتقي في ثلاثة احوال : في أواخر عهد الجاهلية ، في صدر
الاسلام ، في صدر نهضتنا الحاضرة
نأخذ من الحالة الاولى أن من أسباب رقي الخطابة - بعد
فصاحة اللغة - حياة الامة في بيئة حرة ، وشعورها بانها ذات
سؤدد ونفخار ، وكثرة ترددها على حروب تدافع فيها عن
أعراضها ونفوسها وأموالها

ونأخذ من الحالة الثانية أن من أسباب رقي الخطابة اعتناق
الامة ديناً تحملها الغيرة والعاطفة على أن تبث نصحها وتجاهد في
سبيله بما تملك من قوة

ونأخذ من الحالة الثالثة أن من أسباب رقي الخطابة شعور
الامة بالحاجة الى أن تأخذ الحالة الاجتماعية السياسية هيئة غير
هياتها ، وتسلك سيرة أقوم وأهدى من سيرتها

﴿ تعلم الخطابة ﴾

قد يدرس علوم الادب بما فيها من علمي العروض والقوافي من لا يدري كيف يصنع شعراً مستقيم الوزن سليم القافية ، وقد يدرس علوم الادب بما فيها من علوم البلاغة من لا يستطيع أن يكتب خطاباً يسيغه الذوق الصحيح . كذلك الرجل قد يدرس قوانين الخطابة ويضيف اليها النضلع من علوم اللغة وآدابها ثم لا يكون له بعد هذا في الخطابة العملية جزء مقسوم

الخطابة لا يحكم صنعها الا من يأخذ بها خاطره يوماً فيوماً ، ويروض عليها لسانه في هذا المجمع مرة وفي ذلك المجمع مرة اخرى تقرأ في كتب الادب ما يدلنا على ان العرب كانوا يأخذون انفسهم بالتدرب على الخطابة حتى تلين لهم قناتها ، نجدهم حين يتحدثون عن عمرو بن سعيد بن العاص يقولون : انه كان لا يتسكلم الا اعتوته حبسة في منطقه فلم يزل يتشادق ويمالج اخراج الكلام حتى مال شدقه . ومن أجل هذا دعي بالاشدق ، واياه يعنى الشاعر الذي يقول :

شدق حتى مال بالقول شدقه

وكل خطيب لا أبلك أشدق

وربما تصدى بعض خطبائهم لتعليم الفتيان كيف يخطبون ،
يقص علينا صاحب العقد الفريد أن بشر بن المعتمر مر بالخطيب
ابراهيم بن جبلة السكوني وهو يعلم فتيانهم الخطابة فوقف بشريستمع
ثم قال لهم : ا ضربوا عما قال ابراهيم صفحا ، واطووا عنه كشحا .
ثم دفع لهم صحيفة من تميمه تخموي شيئا من آداب الخطابة

والخطابة كسائر الصناعات ، يتفاوت الناس في اتقانها
والاخذ بزمامها ، فمنهم من يمتلكها في أمد قريب ، ومنهم من
يحتاج الى أن يصرف في مزاولتها زمناً بعيداً وقد كان أهل الادب
يقولون : انهم لم يروا قط خطيباً بلدياً الا وهو في أول تكلفه
للخطابة مستثقلاً الى أن يتوقع وتستجيب له المعاني ويتمكن من
الالفاظ . الاشبيب بن شيبة ، فانه ابتداءً بحلاوة ورشاقة
وسهولة وعدوبة

واذا كانت الخطابة صناعة تنعاضى على طلابها الا أن يأتوها
من طريق الدربة والممارسة ، فمن اللائق برجال يتقلدون في
هذه الامة أمر التعليم أن يفرضوا لها من أوقات الدراسة نصيبا
كافيا ، حتى تخرج لنا هذه المعاهد والمدارس خطباء يقودون
الامة الى حيث تلقى السيادة والعظمة

﴿ اعطاء الحروف حقها ﴾

ومما يقيم الخطبة ويكسوها روتقاً أن يلفظ الخطيب بالحروف متمكنة من مخارجها ، وقد كان العرب يحتفلون بهذا الوجه من الحسن فيأسف الخطيب على سقوط شيء من أسنانه ، وإنما يأسف لأن يفوته النطق ببعض الحروف على وجهها الصحيح . سقطت ثنايا عبد الملك بن مروان فشدّها بالذهب وقال : لولا المنابر ما باليت متى سقطت

وكانوا يفضلون الخطيب الذي يمكن الحروف من مخارجها على الخطيب الذي يضع الحرف بمخرج غير ممكن خطب الجمحي وكان منزوع إحدى الثنتين فكان عند ما ينطق يخالط نطقه شيء يشبه الصغير ، وخطب عقبه زيد بن علي بن الحسين ، فاجاد الخطيبان الا أن زيد بن علي فضل الجمحي بتمكين الحروف وحسن مخارج الكلام فقال عبد الله بن معاوية يذكر ذلك :
صحت مخارجه وتم حروفها فله بذلك مزية لا تنكر

ولهجنة الحروف غير المتمكنة ونبوها عن السمع كان بعض الخطباء الذين يبلون بنحو اللثغة يتجنبون في كلامهم الحرف الذي يتعذر عليهم أن يلفظوا به على وجه سليم ، ومثل هذا واصل

الغزال فقد كان ألنغ قبيح اللثة في النطق بالراء ، فكان
يتحامي أن ينطق بكلمة تحتوي الراء على كثرة تردد الراء في
الكلام ، ولقوة عارضته وغزارة مادته من اللغة استطاع أن
يلقي الخطب الطوال دون أن يأتي على لفظ يشمل على هذا
الحرف ، وقد مدحه بهذا الصنيع بعض الشعراء فقال :

علم بابدال الحروف وقامع

لكل خطيب يغلب الحق باطله

ومما يؤخذ به الخطيب أن ينطق بالالفاظ في عجل حتى
يصل الحرف أو اللفظ بأخيه قبل أن يستقر الحرف أو اللفظ الأول
في موضعه ، والادب الجميل أن يمكن الحروف تمكيناً ، ويفصل
الكلمات تفصيلاً ، وكذلك كان كلام أفصح الخليفة صلوات الله
عليه ، قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها : ما كان رسول الله
يسرد سردكم هذا ولكنه كان يتكلم بكلام بين فصل يحفظه من
جلس اليه

﴿ حسن اللقاء ﴾

لاختيار المعاني وحسن تنسيق الألفاظ وقع في نفوس
السامعين بليغ ، ومما يزد الخطبة حسنا على حسناتها أن يجيد الخطيب

القاءها ، ونعني باجادة الالقاء أن لا يستمر في نطقه بالجل على حال واحدة ، بل تكون الجل متفاوتة في مظاهرها من نحو رفع الصوت وخفضه وتفخيمه وترقيقه ، والوقوف عند جملة ، أو وصله بأخرى ، والضغط على الكلمة أو التلغظ بها في هوادة ، وأنتم تعلمون أن من هيات النطق بالجملة ما يشعر بإتجاج الخطيب أو حزنه ، ومنها ما يلائم الجل التي يلقيها وهو واثق بصحتها ، ومنها ما يلائم الجل المرسله لتهمكم أو مزاح ، ومرجع هذا كله الى ذكاء الخطيب وسلامة ذوقه

وجودة القاء الخطبة هي التي تجعل لسماها فضلا على قراءتها في صحيفة ، وكم من خطبة يحسن الرجل القاءها فيجد الناس في سماعها من الارتياح وهزة الطرب فوق ما يجردونه عند ما يقرأونها في صحيفة أو يستمعون الى من يسردها عليهم سردا متشابها

﴿الاشارة في الخطابة﴾

من سنن الخطابة عند العرب وغير العرب أن يقرن الخطيب بعض أقواله باشارات محسوسة ، كرفع اليد وخفضها ، أو قبضها وبسطها ، أو ادارتها الى اليمين في حال وادارتها الى اليسار في حال اخرى ، وأمثال هذه الاشارات لا يكاد صاحب حديث

يستغنى عنها ، قال علامة بن أشرم : لو كان ناطق يستغنى بمنطقه
عن الإشارة لاستغنى جعفر بن يحيى عن الإشارة كما استغنى عن
الاعادة

وقد يتكلف الرجل ان يتكلم في هدو وسكون ، ويحرص
على أن لا يتحرك من جوارحه حين يتحدث غير شفثيه ولسانه ،
مثل ما كان يصنع أبو شمر ويقول : ليس من المنطق أن تستمعين
عليه بغيره . وإنما تيسر هذه الهيئة لمن يتحدث في راحة بال
وقرارة جاش ، وليس هذا شأن الخطيب المطبوع ، وإنما شأنه
توقد الفؤاد وهياج العاطفة ، فهو في انفعال يضطره الى أن يحرك
يده ولو قليلا

فالخطيب الاحوذ من بحفظ بحسن الصمت ، ولا يكثر من
الإشارة ، وإذا أشار فأنما تكون اشارته من الحكمة كأنها شيء
استدعاه المعنى بطبيعته

❖ القيام بمكان مرتفع حال الخطابة ❖

يقف الخطيب بمكان مرتفع لكي يمتد صوته الى مدى أبعد
مما يبلغه لو كان قائماً بمكان مساو لمقاعد المستمعين ، ومن
دواعي ارتفاع الخطيب أن يشهد الحاضرون اشاراته الممثلة

لبعض المعاني المعقولة ، ووقوف الخطيب بمرأى من المستمعين
يدعوهم الى الاقبال عليه بأوفى مما لو كانوا يسمعون حديثه وهو
غائب عن أبصارهم

وكان رسول الله ﷺ يخطب يوم الجمعة مسنداً ظهره الى
جذع منصوب في المسجد ، ثم أمر فصنع له منبر من طرفاء الغابة
وكان ذلك المنبر مراكباً من ثلاثة درج ، وبقي بهذه الهيئة حتى
زاده مروان في خلافة معاوية ست درجات من أسفله ، وقال :
انما زدت فيه حين كثرت الناس

وكان العرب يخطبون من قيام ولا يخالفون هذه العادة الا
في خطبة النكاح فانهم يلقونها من جلوس اذ ليس من شأنها
أن تحتوي معاني تدعو الحاجة الى أن يسمعها جميع الحاضرين
وكان عليه الصلاة والسلام يخطب قائماً ، وكذلك كان شأن
الخلفاء الراشدين ، وروي أن معاوية بن أبي سفيان رحمه الله
خطب جالسا ، وذكروا في وجه الاعتذار عنه انه جلس للخطبة
حين ثقل جسمه ، وروي مسلم في صحيحه ان عبد الرحمن بن
الحكم خطب في يوم جمعة قائداً فانكر عليه بعض الصحابة
وقال : انظروا الى هذا يخطب قائداً والله تعالى يقول « واذا
رأوا تجارة أو لهواً انفضوا اليها وتركوك قائماً »

وقد اتفق العلماء على أن القيام في الخطبة مشروع وإنما
اختلفوا في تقدير المشروعية ، فذهب فريق الى انه شرط في
صحة الخطبة ، وقال آخرون : انه واجب ، ولو خطب من
جلوس لصحت الخطبة وارتكب أمّا . والذي اعتمده الحنفية
انه سنة ، ولا يبلغ حد الوجوب ، فلو خطب قاعداً مضت
الخطبة على ما نقصها من أدب كان رسول الله ﷺ يحافظ عليه
ما دام حياً

﴿ الارتاج في الخطابة ﴾

قد يعرض للمخطيب وإن كان ذا عارضة قوية ما يسمونه
ارتاجاً ، وهو أن يقف فتنتقطع عنه مذاهب القول فلا يدري
أين يضع كلامه ، ومن أسباب الارتاج الدهش والانبهار الذي
يأخذ النفس من هيبة الملاء العظيم ، أو هيبة الرجل الذي
شأنه أن ينقصد الأقوال بعقل موزون . وحال الدهش والانبهار
إنما تغشى ذلك الذي لم يكن على نقية من كفايته لمقام الخطابة ،
فيخشى أن يقع في معنى سخي أو لفظ مرذول . قال الكميت
ابن زيد : إنما يجترىء على الخطابة الغمر الجاهل ، أو المطبوع
الحاذق الواقع بغزارته واقتداره

والخطيب المتصنم متى أرتج عليه لم يسهه الا ان يدع الكلام
وينزل عن مقام الخطابة صاغرا . أما الخطيب المطبوع فقد ينبو
فكره عن الغرض الذي وقف من أجله ، ولكنه لا يعجز أن
يسمع الناس كلمات بليغة يصون بها موقفه من أن يسام بغضاضة
أو ازدراء .

صعد خالد بن عبد الله القسري المنبر فارتج عليه ، فمكث
ملياً لا يتكلم ، ثم تكلم فقال : أما بعد فإن هذا الكلام يجيء
أحياناً ، ويعزب أحياناً ، فيسيح عند مجيئه سيبه ، ويعز عند
عزوبه طلبه . الى ان قال : وقد برنج على البليغ لسانه ، ويختلج
من الجريء جنانه ، وسأعود فأقول ان شاء الله
ويروى في هذا الصدد أن ثابت بن قطة صعد منبر سجستان
فقال : الحمد لله . ثم ارتج عليه ، فنزل وهو يقول :
قان لا أكن فيكم خطيباً فانتى

بسيفى في يوم الوغى الخطيب

ف قيل له : لو قلتها فوق المنبر لكنت أخطب الناس

﴿ الارتجال في الخطابة ﴾

في الناس من يقف ليخطب فتنهال عليه المعاني وتتسابق اليه
الالفاظ ، فيسترسل في القول دون أن يدركه حصر أو يتعثر في

للجلجة ، وهذا ما نسميه ارتجالا . وفي الناس من تبيته المعاني على مهل ، وتتوارد عليه الالفاظ في تباطؤ ، فلا يحسن أن يخطب الا بعد أن يعد لمقام الخطابة مقالا .

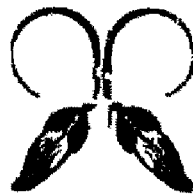
قال أبو هلال العسكري : في الناس من اذا خلا بنفسه واعمل فكره أتى بالبيان العجيب ، واستخرج المعنى الرائق ، وجاء باللفظ الفائق ، فاذا حاور أو ناظر قصر وتأخر ، فخلق بهذا أن لا يمرض لارتجال الخطب

وكانوا فيما سلف يتهمون الخطيب المبدع بأنه يهوى الخطب ويحبرها تحبيرا ، وانما ينفي عنه هذه التهمة أن يحدث داع للخطابة فجأة فيقف ويخطب بما يشبه خطبه السابقة ارتجالا . قبل لبعض الخلفاء ان شبيب بن شيبه يستعمل الكلام ويستعيره ، فلو أمرت أن يصعد المنبر لرجوت أن يفتضح . فامر رسولا فاخذ بيده الى المسجد فلم يفارقه حتى صعد المنبر فارتجل كلاما يشبه طرز خطبه ، فعرفوا انه من أوائك الذين يستطيعون أن يقتضوا الخطب ساعة يقومون على اعواد المنابر اقتضابا

فبلاغة الخطبة في نفسها مزية ، وارتجالها بعد هذا مزية اخرى ، وانما يقوى على ارتجال الخطبة والقائها متمسكة الحلقات ،

من سبق له أن ادرك معاني كثيرة تتصل بالموضوع ، وكانت له
حافضة قوية تؤدي اليه صورة هذه المعاني كما أودعها ، وكان بعد
هذا المعياً مهنذا ، يحسن التصرف في هذه الصور ، ويضع كل
صورة بالمكان اللائق بها
أيها السادة ،

هذا ما سمح المقام بعرضه على اسماع شبابنا الاذكياء ، وانما
قصدا تذكركم بهذا الفن الجليل فن الخطابة ، لعلمهم بمنحونه من
اقبالهم جانباً ، فان الحاجة الشديدة اليه قائمة ، والدواعي الى
ترقيته وتوسيع نطاقه متجمعة ، واولو الالباب هم الذين يقدر
الحاجات فيبادرون الى سدها ، ويستمعون الى الدواعي فيحسنون
اجابتها . والسلام عليكم ورحمة الله



نِقْضُ الْحُجَّتِ كِتَابٌ فِي الشَّعْرِ الْجَاهِلِيِّ

للسيد محمد الخضر حسين التونسي

هو خير كتاب ألف في بيان اغلاط طه حسين

في كتابه عن الشعر الجاهلي

بمئوى على ٣٦٢ صفحة بقطع مجلة الزهراء عنه ١٢ قرشاً

الدعوة إلى الإصلاح

بقلم
السيد

محمد الحضر حسين

من علماء الجامع الأزهر
و جامع الزيتونة بتونس

هي مجموعة المقالات النفيسة التي نشرت في صفحات الفتح
و كانت موضع إعجاب جسيم قرائه

العظمت

محاضرة

لقاها السيد

محمد الخضر حسنين

في دار جمعية مكارم الاخلاق الاسلامية

يوم الجمعة ٢٦ ربيع الثاني سنة ١٣٤٦

وقد تضمنت الرد على مقالة على عبد الرازق التي كان نشرها في جريدة
السياسة يوم ١٢ ربيع الاول بمناسبة ذكرى المولد الشريف